

الحمى الباردة بالشعر

كان هنالك رجل مريض يعشق البادية مغترب في مصر! . أضناه حمى شديدة تتقارع مع عناد وكبر نابع من شموخ ورفعة وعزة بالنفس، ومع اجتماع الغربة والمرض عليه إلا أن كائناً من كائن لم يكن ليحرك فيه ساكن، فهو يترفع أن يراه الناس ضعيف ويرفض أن يذهب إلى الطبيب وكان من معه يلومه على ذلك فيقول لهم

مَلُومُكُمْا يَجُلُّ عَنِ الْمَلَامِ * وَوَقَعَ فَعَالَهُ فَوْقَ الْكَلَامِ**

و لكن هذا الرجل يتمادى في كبره ويطلب منهم تركه يهيم في الصحراء فهو يعرف كيف يجوب البيداء بدون ماجلان ولا جوال بل حتى بدون غطاء لوجهه يقبه في الصحراء حر نصف النهار -الهجير-

ذُرَانِي وَالْفَلَاةُ بِلَا دَلِيلٍ * وَوَجْهِي وَالْهَجِيرُ بِلَا لَثَامِ**

وكان ينسب مرضه الذي حل به إلى الراحة ويدعي أن شفاؤه في الصحراء والترحال فيها

فَانِي أُسْتَرِيحُ بِذَا وَهَذَا * وَأَتَعِبُ بِالْإِنَاخَةِ وَالْمَقَامِ**

ولكن كيف لغريب وحيد مريض أن يعيش في الصحراء من غير زاد ولا ماء؟ هذه التساؤلات لا تجول في خلد رجل مثله فهو يدعي أنه يستطيع معرفة مكان المياه في الصحراء بمجرد عده للبرق عند هطول المطر

فَقَدْ أُرِدَ الْمِيَاهُ بِغَيْرِ هَادٍ * سَوَى عَدِي لَهَا بَرْقُ الْغَمَامِ**

و وحدته في الصحراء لها قناعة راسخة في عقله أنه في ذمة الله وذمة سيفه

يَذِمُّ لِمَهْجَتِي رَبِّي وَسَيْفِي * إِذَا أَحْتَاجَ الْوَحِيدُ إِلَى الذَّمَامِ**

لكن أصحابه لم يطيعوه ولم يتركوه لهواه بل أحضروا له الطبيب لعلاج وحذروا الطبيب من هذا المريض وصعوبة التعامل معه، إلا أن الطبيب بادر المريض بابتسامة لعلها تلين ما به من قسوة وعزة بالنفس ولكن المريض عاجله قبل التحية بقوله

فَلَمَّا صَارَ وَدَ النَّاسِ خَبَا * جَزِيَتْ عَلَيَّ ابْتِسَامُ ابْتِسَامِ**

وكانت ردة الفعل لهذه الابتسامة من قبل الطبيب بيت من الشوك لا بيت من الشعر، فأنت مخادع - خبأ- بابتسامتك و لك مني المثل، وبرر هذه الابتسامة الصفراء بقوله

وَصَرْتُ أَشْكَ فَيَمُنُ أَصْطَفِيهِ * لِعَلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ**

ولم يقف عند هذا الحد بل ورد الجميل لمن أشفق عليه وأحضر له الطبيب بقوله

يَحِبُّ الْعَاقِلُونَ عَلَيَّ التَّصَافِي * وَحُبُّ الْجَاهِلِينَ عَلَيَّ الْوَسَامِ**

أي أن أصحابه جهلة وحمقى يقدرّون الطبيب لحسن صورته -الوسام- مع أن هذا الطبيب لم ولن يكون مثله في مخبره وصفاء وده، لكن الطبيب كان حليماً وتجرع القسوة وقال له لا تعتبرني صديق بل اعتبرني أخوك وعلمي بما تشكو لكن شقيق هذا الرجل لم يكن أفضل حال من صديقه

وأنف من أخي لأبي وأمي * إذا ما لم أجد من الكرام**

فقال له الطبيب أنا كريم و من عائلة المكارم ومع هذا أتلف إليك فرد علي

أرى الأجداد تغلبها جميعاً * على الأولاد أخلاق اللئام**

ولست بقانع من كل فضل * بأن أعزى إلى جد همام**

أي أن الأخلاق اللئيمة تغلب الأصل الطيب الكريم لهذا فهو لا يقنع بأن ينسب -يعزى- إلى جده حتى لو كان هذا الجد شجاع سخي -همام-، عندها تقدم الطبيب له بالاعتذار فلم يقصد أن يجرحه بل أراد أن يتقرب إليه بما يحب من شرف النسب وعزة بالنفس كما أنه فارس وحامل لل سيف مثله فقال له المريض

عجبت لمن له قد وحد * وينبو نبوة القضم الكهام**

فهو يعجب ممن في صباه ذو قامة -قد- و بأس السيف -حد- ثم لا ينفذ في الأمور ولا يكون ماضياً -ينبو- فيكون كالسيف الذي فيه فلول -قضم- ولا يقطع -كهام- . ليس هذا فحسب بل يذهب إلى أبعد من هذا فيرى أن المجد في اتعاب المطايا -الجمال- حتى تصبح من غير سنام -هل يعقل هذا؟؟!..... لكن يا للهول منك يا هذا الرجل-

ومن يجد الطريق إلى المعالي * فلا يذر المطي بلا سنام**

ومن ثم أجمه جمرة ولسان حاله يقول سوف أزيدك من الشعر بيت لم تسمع بمثله العرب والعجم

ولم أر في عيوب الناس شيئاً * كنقص القادرين على التمام**

ومع كل هذا الهجوم الشرس على هذا الطبيب إلا أنه لم يتزحزح عن رأيه قدر أنملة بل أصر على البقاء وطلب من المريض أن يخبره بقصته!..... وأمام هذا العناد من الطبيب أجابه المريض بقوله أنه عاش في مصر مثل الإبل -الركاب- التي لا تسير -الخب- لا إلى الخلف ولا إلى الأمام

أقمت بأرض مصر فلا ورائي * تخب بي المطي ولا أمامي**

إلى درجة أن الفراش مل منه من طول البقاء عليه بعد ما كان مرتحلاً يمل من الفراش وإن لم يلقاه إلا مرة في السنة

وملني الفراش وكان جنبي * يمل لقاءه في كل عام**

قليل عائدي سقم فؤادي * كثير حاسدي صعب مرامي**

عليل الجسم ممتنع القيام * شديد السكر من غير المدام**

ومع عدم حركته إلا أنه غريب قليل من يزوره، ومع هذا فحساده كثير لعظم فضله و لتطلعه و
مطلبه -المرام- الصعب.

كان الطبيب يبحث عن سبب للحمى فالرجل ذو خير كما يدعي ومغترب، فكان أول ما تبادر إلى
ذهنه أمراض العلاقة المحرمة، ومن قبل أن يسأله جاءه الجواب

وزائرتي كأن بها حياء * فليس تزور إلا في الظلام**

وقد قدم لها كل ما يتطلع إليه الضيف من إكرام بأغطية -مطارف- ومفارش -حشايا- ولكنها لم
ترضى إلا بالتغلغل إلى أعماق جسده تبيت فيها

بذلت لها المطارف والحشايا * فعافتها وباتت في عظامي**

هذه العاشقة لم يعد جلده يتحملها ولا حتى انفاسه و مع كرهه لها إلا أنها تكرمه بكل مرض

يضيق الجلد عن نفسي وعنهما * فتوسعه بأنواع السقام**

وعندما تفارقه هذه العاشقة تغرقه عرفاً وكأنه غسل الجنابة

إذا ما فارقتني غسلتني * كأننا عاكفان على حرام**

كأن الصبح يطردها فتجري * مدامعها بأربعة سجام**

والغريب أنها تستحي من النهار ولا تلبث أن تختفي مع بزوغ الفجر فتسيل دموعه أربع أربع
وكانه يبكي من لوعة الفراق، ليس هذا فحسب بل من شدة ما يعاني منها فهو يمضي باقي يومه
ينترقب رجوعها خوفا وليس حبا مع علمه أنها لا تأتي إلا كعادتها في الظلام

أراقب وقتها من غير شوق * مراقبة المشوق المستهام**

ولكنها صادقة دائماً في عهدها المشئوم و لا تتأخر في مواعيدها

ويصدق وعدّها والصدق شر * إذا ألقاك في الكرب العظام**

أبنت الدهر عندي كل بنت * فكيف وصلت أنت من الزحام**

هذه النازلة الشديدة – بنت الدهر- لا يعرف كيف وصلت إليه مع تزامم النازلات و الشدائد عليه

جرحت مجرحا لم يبق فيه * مكان للسيوف ولا السهام**

ومع أنه مجروح من الحروب التي خاضها ولم يبقى لسيف ولا سهم مكان في جسده إلا أن هذه النازلة لم ترحمه بل جرحته ما به من جروح

ألا يا ليت شعر يدي أتمسي * تصرف في عنان أو زمام**

وأصبح شغله الشاغل أن يعلم هل يصبح ويهرب من مصر فتكون يمينه ماسكة بعنان خيل أو زمام جمل،..... عندما عرف الطبيب أن السبب لم يكن لمرض جنسي سأله هل أكلت شيء غريباً؟ لن الأمراض غالباً ما تكون بسبب الأكل

يقول لي الطبيب أكلت شيئاً * وداؤك في شراكب والطعام**

وما في طبه أني جواد * أضرب جسمه طول الحمام**

أصر الرجل أن سبب علته كونه فرس قد مرض من الراحة بعد تعوده على القتال ودخوله من غبار حرب إلى أخرى

تعود أن يغبر في السرايا * ويدخل من قتام في قتام**

أما الآن فهو كالخيل المربوط بحبل ليس طويل فيرعى، وليس مفلوت فيأكل مما يُعلق له في فمه -قتام- وليس ملجوم..... أي أنه ممنوع من الحركة

فأمسك لا يطال له فيرعى * ولا هو في العليق ولا اللجام**

ومع كل ما يلاقيه من ويلات إلا أن صبره لم يمرض ولم تطل الحمى من عزيمته شي وإذا سَلِمَ فلن يسلم يوماً من الموت - الحمام-

فإن أمرض فما مرض اصطباري * وإن أحمم فما حم اعتزامي**

وإن أسلم فما أبقى ولكن * سلمت من الحمام إلى الحمام**

وبعد الاعتراف بالموت أصبح هذا المريض من الوعاظ وقال لطبيبه مادمت حياً تمتع بالسهر - سهاد- والنوم ولكن لا ترجو المبيت في القبر -الرجام- لان الموت -الحالة الثالثة- ليس له متعة السهر والنوم

تمتع من سهاد أو رقاد * ولا تأمل كرى تحت الرجاء**

فإن لثالث الحالين معنى * سوى معنى انتباهك والمنام**

هذه القصيدة من أجمل وأعذب ما قاله المتنبي وهو يصف الحمى التي أصابته بمصر، و من المتوقع أنها حمى الملاريا وقد وصفها بما يعجز عنه أي كتاب في الطب، ونحن الآن في منتصف 2009 وقد ظهرت حمى أطلق عليها أنفلونزا الخنازير ارتعب العالم كله منها وفي هذا

الوقت كنت في البرازيل لحضور مؤتمر فأثرت البقاء وحيدا في الفندق أقرأ ديوان المتنبي فتداخلت الغربية والوحدة والخوف كما تداخل السمك واللبن والتمر هندي، فخرجت أبيات أبو الطيب المتنبي من مخيلة طيب في هذا العصر يخشى الحمى الخنزيرية في ساو باولو البرازيلية.....و تمخض الجبل فولد فأرا.

الدكتور عبدالرحمن بن عبدالله حجر

<http://faculty.ksu.edu.sa/drhagr>

ساو باولو 30-5-2009